

أبواب الصِّدْق

- في معرفة النفس .
- في معرفة العدو .
- في الورع .
- في الحلال الصافي .
- في الزهد .
- في التوكل على الله .
- في الخوف من الله .
- في الحياء من الله .
- في شكر الله .
- في المحبة .
- في الرضا .
- في الشوق إلى الله .
- في الأُنس بالله .

obeikandi.com

باب

الصدق في معرفة النفس والقيام عليها

قال الله عز وجل: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ^(١)).

وقال تعالى في قصة يوسف ، عليه السلام ، حين يذكر عنه :
(وما أبرئ نفسي إنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَرَحِمٌ رَبِّي^(٢)) .
وقال تعالى : (وأما من خاف مقامَ رَبِّهِ ونهى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ،
فإنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى^(٣)) .

وقال رسول الله ﷺ : « أعدى عدوك : نفسك التي بين
جنبيك ، ثم أهلك ، ثم ولدك ، ثم الأقرب فالأقرب^(٤) » .
ويرى عنه ﷺ أنه قال « نفس إن قببها^(٥) ونغمها^(٦) ذمته غداً
عند الله » .

(٢) سورة يوسف : ٥٣ .

(١) سورة النساء : ١٣٥ .

(٣) النازعات : ٤٠ ، ٤١ .

(٤) عدواة النفس لأنها أمارة بالسوء إلا مراحم ربى . وعدواة الأهل ، لعلها من ناحية
الفتنة ، إنما أموالكم وأولادكم فتنة ؛ أو أن ذلك محمول على البعض دون الكل ، وإن من
أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم .

(٥) أطاعها في شهوتها الجنسية .

(٦) أجابها إلى ماتشهى من الشراب والسباع .

قيل له : وماهى ؟

قال : « أنفسكم التى بين جنبيكم » .

فمن صفة الصادق فى القصد إلى الله تعالى : أن يدعو نفسه إلى طاعة الله تعالى ، وطلب مرضاته ، فإن أجابته حمد الله ، تعالى ، وأحسن إليها .

فهكذا يروى عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، أنهم رأوه يوطئ^(١) شيئاً يفرشه .

فقيل له : ما هذا ؟

قال : نفسى إن لم أحسن إليها لم تحملنى .

وإن لم تجبه إلى ما يرضى الله ، ورآها بطيئة ، منعها محبوبها من العيش ، وخالفها عندما تهوى ، وعادها فى الله ولله ، وشكها إلى الله ، حتى يصلحها له .

ولا يقيم على ذمها مع الإحسان إليها ، وذكر عيوبها والذم لها ، وما لا يرضاه من فعلها ، مع الإقامة معها على الذى تهواه من الفعل .
وهكذا يروى عن بعض العلماء أنه قال :

« قد علمت أن من صلاح نفسى علمى بمفاسدها » .

وكفى بالمرء إثماً أن يعرف من نفسه عيباً لا يصلحه ، وليس منتقلاً من ذلك إلى توبة .

(١) يمسح .

وقال بعض العلماء : إن كنت صادقاً في ذمك لنفسك : فإن ذمك غيرك بما فيك فلا تغضب .

وإذا نازعتك نفسك إلى شيء من الشهوات ، أو شغل قلبك في طلب شيء مما حرم عليك وحلى لك ، فاتهما تهمة من يريد صلاحها ، وامنعها من ذلك منع من يريد استعبادها ، واحملها بالامتناع عن الملاذ على اللحوق بمن تقدمها .

فإن الذي نازعتك إليه : لا يخلو من أن يكون حراماً تستحق به السخط ، أو حلالاً ، تستوجب به طول الوقوف على المسألة إذا مضى التاركون للحرام إجلالاً له وتعظيماً له ، ووقفوا عن الحلال للانكماش^(١) والمبادرة .

فاعمل في قطاع نفسك عن الحالين جميعاً ، فإن من فطم نفسه عن الدنيا ، كان رضاعه من الآخرة ، ومن اتخذ الآخرة أمّاً : أحبّ ربّها والورود عليها .

إذا رضى أبناء الدنيا بالدنيا أمّاً ؛ وبرّوها ؛ وسعوا من أجلها ، فارم المؤثرين للدنيا من قلبك بالهجران ، مع النصيحة لهم وتحذيرهم إياها . واحذر التخلف عن السابقين ، وانظر في خاصّة نفسك ، وحثّ على ذلك أصفياءك وبطائكك ، فإن السابقين شمروا وشدّوا المآزر ،

(١) لعل المقصود : للانكماش عن طول الحساب والمبادرة إلى الجنة .

وكشفوا عن الرؤوس والسوق^(١) ، فاغتنموا الصحة ، وبادروا في النشاط ، ورعوا حقَّ الله تعالى ، وحذروا أن يهتكوا سترًا مما نهاهم عنه ، وتحببوا إليه برفض ما أباح لهم أخذه ، وتركوا الحرام تعبدًا ، والحلال تقريبًا ، وألقوا السهر والظمأ ، وأنسوا إلى التبغ والاجتزاء باليسير .

باب

الصدق في معرفة عدوك : إبليس

قال الله ، عزَّ وجلَّ : (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ، إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ)^(٢) .

وقال ، جلَّ وعزَّ : (يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمُ مِنَ الْجَنَّةِ)^(٣) .

وقال تعالى : (وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ ، فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ)^(٤) .

وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : « للملك لمة وللشيطان

(١) كناية عن الاجتهاد .

(٢) سورة فاطر : ٦ .

(٣) سورة الأعراف : ٢٧ .

(٤) سورة النمل من الآية : ٢٤ .

لِئمة : فلمة الملك : إيعاد بالخير ، ولئمة الشيطان : إيعاد بالشر .
وقال في خبر آخر : « إن الشيطان جاثم على قلب ابن آدم ، فإذا
ذكر الله خنس (١) ، وإذا غفل وسوس » .

فقاطع مادته بالعزيمة على مخالفة هواك ، وامنع نفسك من الإفراط
والتشوف (٢) ، فهما خير أعوانه عليك ، وبهما يقوى كيده ، وإذا اتبعتهما
فأحضر عقلك وعلمك الذى علمك الله تعالى ، فقم بهما على نفسك ،
وراع قلبك وما يقع فيه ، فما كان من أجناس الخير والعلم فاتبعه ، وما
كان من جنس الباطل والهوى فانفه بالسرعة ، ولا تتماد على الخطرة (٣) ،
فتصير شهوة ، ثم تصير الشهوة همة (٤) ، ثم تصير الهمة فعلاً .

واعلم أن عدوك إبليس لا يغفل عنك فى سكوت ولا كلام ، ولا
صلاة ولا صيام ، ولا بذل ولا منع ، ولا سفر ولا حضر ، ولا تفرد
ولا خلطة ، ولا فى توقر (٥) ولا عجلة ، ولا فى نظر ولا فى غض بصر ،
ولا فى كسل ولا فى نشاط ، ولا فى ضحك ولا فى بكاء ، ولا فى إخفاء
ولا فى إعلان ، ولا حزن ولا فرح ، ولا صحة ولا سقم ، ولا مسألة

(١) انقبض واتزوى .

(٢) التعلق بالآمال .

(٣) مايجرى فى القلب من تدبير أمره .

(٤) أول العزيمة أو العزيمة ، والهيم بالفتح وحذف الهاء كذلك ، ويعكى ابن فارس

(الهيم ماهمت به إذا أردته ولم تفعله) ولعله هنا يتطابق مع ما ذكره ابن فارس .

(٥) اتزان ووزانة .

ولاجواب ، ولا علم ولا جهل . ولا بعد ولا قرب ، ولا حركة ولا
سكون ، ولا توبة ولا إسرار .

ولن يألو جهداً في توهين عزمك . وفتور نيتك . وتأخير توبتك ،
ويسوّف بك وقتاً إلى وقت ، ويأمرك بتعجيل مالا يضرّك تأخيره ، يريد
بذلك قطعك من الخير ، ثم يذكرّك في وقت شغلك بالبر والطاعة ،
الحوائج ليقطعك عن خير أنت فيه .

وربما حجب إليك النقلة من بلد إلى بلد . يوهمك أن غير البلد الذي
أنت فيه أفضل ، ليشغل قلبك ، ويعطل مقامك بما يعقبك الندم إذا
أنت فعلته .

فاحترس من عدوك أشد الاحتراس وتحصن منه بالملجأ إلى الله عز
وجل ، فإنه أمنع الحصون ، وأقوى الأركان ! فاجعل الله تعالى كهفك
وملجأك ، واحذر عدوك عند الغضب والحدة ، فإنك ، إن استقبلك
في هيج الغضب . ذكر الله تعالى ، وعلمت أنه شاهدك ، أطفأت
بمراقبته نيران العز^(١) وتوقد الحمية ، أجلت من قد علمت : أنه يراك
من أن تحدث في غضبك ما تستحق به غضبه ، فإن الشيطان يغم منك
هيج الغضب وحمية الشهوة .

وأما حذرك إياه عند الحدة ، فإنه يقال : إن الشيطان يقول : « إن

(١) التوبة .

لحديد من العباد لن نيش منه ، ولو كان يحى بدعائه الموتى ، لأنه تأتى عليه ساعة يحسد ، فنصير منه إلى ما نريد» (١) .
 « ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

باب

الصدق فى الورع واستعمال التَّقِيَّةِ

فالصدق فى الورع : هو الخروج من كل شبهة ، والترك لكل ما اشبه عليك من الأمور .

فهكذا يروى عن النبى ، صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « لا يكون العبد من المتقين حتى يدع مالا بأس به مخافة ما به بأس » (٢) .

قال صلى الله عليه وسلم : « الحلال بين والحرام بين ، وبين ذلك أمور مشتهيات فن ترك الشبهات مخافة أن يقع فى الحرام فقد استبرأ لعرضه » (٣) .

(١) ولهذا ، لما ذهب رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال له : أوصنى قال : لاتغضب ، كرر ذلك ثلاثاً .

(٢) رواه ابن ماجه والترمذى .

(٣) وفى رواية أخرى : « الحلال بين ، والحرام بين وبينها أمور متشابهات لا يعلمها كثير من الناس . فن اتقى الشبهات : فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات فقد وقع فى الحرام : كالراعى يرعى حول الحمى ، يوشك أن يقع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » .

وقال ابن سيرين ، رحمة الله عليه : ما في ديني شيء أيسر من الورع . كل ما اشتبه عليه تركته .

وقال الفضيل ، رحمه الله ، يقول الناس : الورع شديد ؛ دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ، فخذ ما حل وطاب من الأشياء ، وابدل المجهود في طلب الشيء الصافي من الحلال .
لأن الله عز وجل ، قال : « يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً » (١) .

وقال النبي ﷺ ؛ لسعد ، رضی الله عنه : « إن أردت أن يجيب الله تعالى دعائك ، فكل الحلال » (٢) .

وقالت عائشة ، رضی الله عنها : « يارسول الله ، من المؤمن ؟ قال : من إذا أمسى نظر من أين قرصه » (٣) .

(١) سورة المؤمنون : ٥١ .

(٢) وفي حديث آخر : أن النبي ﷺ « ذكر الرجل يطيل السفر ويرفع يديه إلى السماء بالدعاء ، يقول : يارب ، يارب ، ومأكله حرام ، وملبسه حرام ، فأني يستجاب له » .
(٣) قرصه : رغيقه . أى من أين أكله .

باب

الصدق في الحلال الصافي ، إذا وجدته ، وكيف العمل به ؟

فالصدق في الحلال - إذا وجدته - : أن تأخذ منه مالا بد منه على قدر معرفتك بنفسك ، وما يقيم مبلها ، ولا تحمل عليها فوق طاقتها فتنتقع ، ولا تصير معها إلى ماتهواه من السرف ، ولكن خذ ما يقيمك بلا تقتير ولا سرف في الطعام واللباس والمسكن ، واحذر الفضول مخافة الحساب وطول الوقوف .

فهكذا يروى : أن رجلاً قال لعلي بن أبي طالب ، رضى الله عنه : « يا أبا الحسن ، صف لنا الدنيا فقال : حلالها حساب وحرامها عذاب أو عقاب » .

فإذا كان العبد ضعيفاً^(١) ، ثم ملك الشيء الطيب ، حبسه على نفسه وعلى من يومن^(٢) ، فأنفق منه بالمعروف مخافة أن يكون ، إذا أخرجه لم يصبر ، وجزع ؛ فوقع فيما هو أردى منه ، فكان في حبسه إياه

(١) ضعيف العزيمة والسكون إلى الله .

(٢) يعول .

مزرباً^(١) ، على نفسه من اذخاره ، حين عدم من نفسه الثقة بالله تعالى ، والسكون إليه دون الشيء ، فيكون كذلك حتى يقوى عزمه . قلت : فكيف ملك الأنبياء ، عليهم السلام ، الأموال والضياع ، مثل داود ، وسليمان ، وإبراهيم ، وأيوب . ونظرائهم ، ويوسف عليه السلام ، على خزائن الأرض ، ومحمد ﷺ ، والصالحين من بعد ؟ فقال : هذه مسألة كبيرة . وفيها كثير ؟

اعلم أن الأنبياء ، عليهم السلام ، والعلماء ، والصالحين من بعدهم ، رضى الله عنهم أمناء الله تعالى . فى أرضه على سرّه وعلى أمره ونهيه وعلمه . وموضع وديعته . والنصحاء له فى خلقه وبريته . وهم الذين عقنوا عن الله تعالى . أمره ونهيه . وفهموا لماذا خلقهم ، وما أراد منهم . وإلى مانديهم^(٢) ؛ فوافقوه فى محبته . ونزلوا فى الأمور عند مشيئته . ثم وقفوا عند ذلك مواقف العبيد الألباء . القابلين على الله ، والحافظين لوصيته . وأصغوا إليه بأذانٍ فهمهم الواعية . وقلوبهم الظاهرة . ولم يتخفوا عن نديته^(٣) . فسمعوا الله . عز وجل . يقول : (آمِنُوا بِاللّهِ وَرَسُولِهِ . وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُتَخَلِّفِينَ فِيهِ)^(٤) . ثم

(١) منكرًا على نفسه فعلا إذا اطمأنت إلى الشيء وعدمت الثقة بالله ، وبشتم فى إنكاره عليها حتى يقوى عزمه .

(٢) دعاهم .

(٣) دعوته .

(٤) سورة الحديد : ٧ .

قال : (ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ ، مِنْ بَعْدِهِمْ ، لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ » (١) .

وقال تعالى : (لله مافی السَّمَوَاتِ وَمافی الْأَرْضِ) (٢) .

وقال تعالى : (أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ) .

فأيقن القوم : أنهم وأنفسهم لله تعالى . وكذلك ماخولهم وملكهم . فإنما هو له . غير أنهم في دار اختبار وبلوى . وخلقوا للاختبار والبلوى في هذه الدار .

وهكذا يروى عن ابن الخطاب . رضى الله عنه . حين سمع :

(هَلِ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ (٣) لَمْ يَكُنْ شَيْئاً

مذكوراً) (٤) .

قال : باليتها تمت ؟ ! يعنى عمر ، قبل قراءة : (إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ

مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ) : فَهَمَّهُمْ . يقال في التفسير : عجز في التلاء

عجزاً (٥) .

ومعنى قول عمر رضى الله عنه : « باليتها تمت » يعنى : لم يخلق .

حين سمع الله تعالى ، يقول : (لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مذكوراً) .

(١) سورة يونس : ١٤ .

(٢) سورة البقرة : ٢٨٤ .

(٣) وقت من الزمن .

(٤) سورة الدهر .

(٥) عجز عن مواصلة القراءة ، وهو تفسير لهمهم .

وذلك من معرفة عمر ، رضى الله عنه ، بواجب حق الله ، وقدر أمره ونهيه ، وعجز العباد عن القيام به ، وقيام الحجة لله تعالى عليهم ، عند تقصيرهم ، وما تواعدهم به ، إذا ضيعوا .

ويروى عن الحسن . رضى الله عنه أنه قال : « إن الله تعالى ، إنما أهبط آدم ، عليه السلام ، إلى الدنيا عقوبة ، وجعلها سجنًا له ، حين أخرجه من جواره ، وصيره إلى دار التعب والاختبار » .

فمن ملك - من أهل العمل عن الله تعالى ، وأهل الصدق - شيئًا من الدنيا فهو معتقد أن الشيء لله نجلّ وعزّ ، لا له ، إلا هو من طريق حقّ ماخوله^(١) الله تعالى ، وهو مُبلى به حتى يقوم بالحقّ فيه ، لأنّ النعمة بلاء حتى يقوم العبد بالشكر فيها ، ويستعين بها على طاعة الله تعالى .

وكذلك البلوى والضراء : هو اختبار وبلاء ، حتى يصبر عليه ، ويقوم بحقّ الله تعالى فيه .

وكذلك قال بعض الحكماء : « العلم كله بلاء حتى يعمل به » قال الله ، عزّ وجلّ : « الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ، لِيَبْلُوَكُمْ »^(٢) .
وقال : « وَلِنَبْلُوَكُمْ ، حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ ، وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ »^(٣) .

(٣) سورة القتال : ٣١ .

(١) ماخوله : مأعطاه .

(٢) سورة الملك .

فالأنبيا صلوات الله عليهم ، والصالحون ، من بعدهم . الذين
أشعرهم الله بأن أبلاهم في الدنيا بالنسعة ، وخوهم . كانوا إلى الله ،
جلّ وعزّ ، ساكنين ، لا إلى الشئ ، وكانوا خزاناً لله ، جلّ ذكره ، في
الشئ الذي ملكهم ، ينفذونه في حقوق الله تعالى ، غير مقصرين ،
ولأ مفرطين ، ولا متوانين ، ولا متأولين على الله التأويل ، وكانوا غير
متلذذين بما ملّكوا ، ولا مشغولي القلوب بما ملّكوا . ولا مستأثرين به
دون عباد الله تعالى .

ومن ذلك ما روى عن سليمان بن داود عليها السلام ، في ملكه .
وما أباحه الله تعالى من الكرامة ، حين يقول تعالى :
« هذا عطاؤنا ، فامنن أو امسك بغير حساب » (١) .

قال أهل التفسير : لا حساب عليك في الآخرة ، وإنما كان عطاء
هيناً إكراماً من الله ، عز وجل له .

فذكر العلماء : أن سليمان عليه السلام : « كان يطعم الأضياف
الحوارى (٢) النقي ، ويطعم عياله الخشكار (٣) ويأكل هو الشعير » .
وكذلك روى العلماء : أن إبراهيم الخليل ، صلوات الله عليه :
« كان لا يأكل إلا مع الضيف ، فربما لا يأتيه ثلاثة أيام الضيف

(١) سورة ص : ٣٩ .

(٢) الحواري : لباب البر وخالص الدقيق .

(٣) الخشكار : خشن الدقيق .

فيطويها . وربما كان يمشی الفرسخ^(١) . أو أقل أو أكثر ، تلقياً للضيف .

قال : « وكان أيوب النبي ، صلى الله عليه وسلم ، لا يسمع أحداً يحلف بالله تعالى ، إلا رجع إلى منزله فكفر عنه »^(٢) .

وروى العلماء : أن يوسف ، عليه السلام : كان على خزائن الأرض ، فكان لا يشيع . فقيل له في ذلك ، فقال : « أخاف أن أشيع فأنسى الجياع » .

ولقد روى أن سليمان ، عليه السلام : « بينما هو ذات يوم ، والريح تحمله ، والطير تظله ، والجن والإنس معه ، وعليه قميص جديد ، فلصق بيده ، فوجد اللذة ، فسكنت الريح ووضعت على الأرض . فقال لها : مالك ؟

فقلت : إنما أمرنا أن نعطيك ما أطعت الله . ففكر في نفسه من أين أتى ؟ فذكر ، فراجع . فحملته الريح » . ولقد روى : « أن الريح كانت تضعه في اليوم مرات ، من هذا وأشابهه ! ! » .

فالقوم : كانوا خارجين من ملكهم في ملكهم ، ناعمين بذكر الله وعبادته ، غير ساكنين إلى ممالكوا ، لا يستوحشون من فقده إن

(١) الفرسخ : ثلاثة أميال .

(٢) خشية أن يكون قد حنت في يمينه وشفقه عليه .

فقدوه ، ولا يفرحون بالشئ . ولا يحتاجون إلى العلاج والمجاهدة في إخراجهم .

قال الله تعالى ، للنبي ﷺ : (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ^(١)) .

وهذا النبي ، ﷺ : « بينا جبريل ، عليه السلام ، عنده ، إذ تغير جبريل ، فإذا ملك قد نزل من السماء لم ينزل قط ، فقال جبريل عليه السلام : خشيت أنه نزل فيَّ بأمر ، فجاء إلى النبي ﷺ . بالسلام من عند الله عز وجل ، وقال له : هذه مفاتيح خزائن الأرض ، تسير معك ذهباً وفضة ، مع البقاء فيها إلى يوم القيامة ، ولا تنقصك ممالك عند الله شيئاً ، فلم يجتر النبي ، ﷺ ، ذلك ، وقال : أجوع مرة وأشبع مرة ^(٢) .

وعد ذلك من الله ، عز وجل ، بلوى واختباراً ، ولم يره من الله تعالى ، اختباراً ، ولو كان من الله تعالى ، اختباراً : لقبله ، ولكنه علم أن محبة الله تعالى : في الترك للدنيا والإعراض عن زينتها وبهجتها . وبذلك أدبه الله تعالى ، حين قال تعالى : (ولا تمدن عينيك إلى ما

(١) سورة الأنعام : ٩٠ .

(٢) وجاء في الأحاديث : « خيرت بين أن أكون ملكاً رسولاً أو عبداً رسولاً فاخترت : أن أكون عبداً رسولاً » وفي حديث آخر ، في دعاء النبي ﷺ : « اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً ، واحشرنى في زمرة المساكين » .

متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا ، لفتنهم فيه (١) .
ويروى عنه ، صلى الله عليه وسلم : « أنه لبس حلة لها علم فطرحها وقال :
كادت تلهيني أعلامها - أو قال ألهتني أعلامها - خذوني وأتوني
بأنبجانية » .

وكذلك روى : « أنه صنع له خاتم ذهب ليختم به الكتب ، إلى
من أمره الله تعالى بإنذاره ، فلبسه ثم طرحه من يده ، وقال لأصحابه :
إليه نظرة وإليكم نظرة » .

وكذلك روى : « أنه ، صلى الله عليه وسلم ، غير شراك نعله ، فجعل مكانه
جديداً فقال : ردوا الشراك الأول » .

وكذلك كل قلب طاهر صاف . قد أشرف على الآخرة ، وعرف
قيام الله تعالى عليه : يفرغ من خفايا السكون إلى الدنيا . والتحلى بشيء
منها .

ومثل هذا في الأخبار كثير . والعامل الفطن تكفيه الإشارة إليه
بالشئ . وهذا أصحاب محمد ، صلى الله عليه وسلم . حين حثهم على الصدقة ، جاء
أبو بكر بماله كله . لأنه كان أقوى القوم . فقال له النبي ، صلى الله عليه
وسلم : ماخلفت لعيالك ؟

قال : الله ورسوله . ولى عند الله مزيد (٢) .

(١) سورة طه : ١٣١ .

(٢) الترمذى قال : حسن صحيح .

أفلا ترى أبا بكر ، رضى الله عنه ، إنما كان سكوناً إلى الله تعالى ،
لا إلى شيء ، ولم يكن لشيء عنده قدر ، وكان ما عند الله عنده أسراً ؟ !
فحين رأى موضع الحق لم يخلف منه شيئاً ، وقال : خلفت الله
ورسوله .

ثم جاء عمر ، رضى الله عنه ، بنصف ماله ، فقال النبي ، ﷺ :
ما خلفت لعيالك ؟

قال : نصف مالى والله عندي مزيد .

فقد أعطى نصف ماله ، ويقول : والله عندي .

ثم عثمان ، رضى الله عنه ، يجهز جيش العسرة كله بجميع ما يحتاج
إليه ، ويحضر بئر رومة^(١) .

أفلا ترى أن القوم ، إنما كانوا معدين الشيء لله تعالى ؟ !
وما يدل على صدق قولنا : أن القوم كانوا خارجين مما ملكوا وهو في
أيديهم ، يعدونه لله عز وجل .

وقد روى عن النبي ﷺ : أنه قال : « إنا معاشر الأنبياء لا
نورث ، وما خلفناه صدقة » .

أفلا ترى أنهم في حياتهم : لم يرضوا بالشيء عن الله عز وجل ؟ !
وكذلك لم يورثوه ، وخلفوه لله عز وجل ، كما كان في أيديهم لله
تعالى لم يحدثوا فيه ، ولم يخولوه من بعدهم أحداً .

(١) الترمذى والبخارى وغيرهما .

وإن هذا لبلاغ لمن عقل عن الله تعالى وأنصف من نفسه .
وهذا أئمة الهدى بعد رسول الله ﷺ : أبوبكر ، رضى الله من حين
ملك الأمر ، وجاءته الدنيا راغمة من حلها ، لم يرفع بها رأساً ، ولم
يتصنع وكان عليه كساء يخله (١) . وكان يدعى : ذا الخلالين .
وهذا عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، حين جاءته الدنيا
راغمة ، من حلها ، وكان طعامه الخبز والزيت ، وفي ثوبه بضع عشرة
رقة ، بعضها من آدم ، وقد فتحت عليه كنوز كسرى وقيصر .
وهذا عثمان ، رضى الله عنه ، كأنه واحد من عبيده ، فى اللباس
والزى ! ولقد روى عنه : أنه روى خارجاً من بستان له ، وعلى عنقه
حزمة من حطب ، فقيل له فى ذلك ؛ فقال :
أردت أن أنظر نفسى : هل تأبى ؟
أفلا ترى أنه كان غير غافل عن نفسه ، وتعاهدا ورياضتها ؟
وهذا على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، فى الخلافة ، قد اشترى
إزاراً بأربعة دراهم ، واشترى قميصاً بجمسة دراهم ، فكان فى كفه
طول ، فتقدم إلى خراز (٢) ، فأخذ الشفرة ، فقطع الكم مع أطراف
أصابعه ، وهو يفرق الدنيا يمناً ويسرة !
وهذا الزبير ، رضى الله عنه ، يخلف حين مات ، من الدين مائتى

(١) يخيظ مابه من خال وشق .

(٢) خياط .

ألف أو أكثر، كل ذلك من الجود والسخاء والبذل !
وهذا طلحة بن عبيد الله ، رضى الله عنه ، يعطى حتى أهله لمن
سأله !

فهذا يدل على أن القوم كانوا ، كما قال الله عز وجل ، حين
أمرهم ، فقال : (أنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ^(١)) .
ولا يستحى عبد من عبيد الله من أهل زماننا هذا ، عندما ملك من
الشبهات التى علم الله تعالى ، كيف هى ، ومن أين هى ، وكيف قدرها
فى قلبه ، وإيثاره لها ، وسكونه إليها دون الله ، عز وجل ، وما لا يحصى
من عييه ، فى قلبه فى ذلك واشتغاله بذلك ؟
حتى أن أحدهم ليزعم : أنه يملك كما ملك من مضى ، ويحتج بهم
فى اتباع هواه مع إقامته على خلاف سنة القوم .
بل الاعتراف لله تعالى ، بالتقصير من العبد الغافل أقرب إلى
النجاة ، وسؤاله الله ، عز وجل أن يبلغ ما يبلغ بالقوم .
بل الاعتراف لله تعالى ، بالتقصير من العبد الغافل أقرب إلى
النجاة ، وسؤاله الله ، عز وجل أن يبلغه ما يبلغه بالقوم .
وبالله التوفيق .

(٢) سورة الحديد ٨ .

باب

الصدق في الزهد ، وكيف هو؟ وما هو؟

ولقد فضح الله تعالى الدنيا ، سماها بأسماء لم يسمها أحد .
فقال تبارك وتعالى : (اعلموا أنما الحياة الدُّنيا : لعبٌ ، وهوٌ ،
وزينةٌ وتفاخرٌ بينكم . . . الآية)^(١) .

أفلا يستحي من يعقل عن الله تعالى ، أن يراه ساكناً إلى اللهو ،
واللعب ، في دار الغرور .

قلت : الدنيا في نفسها ، ماهي ؟

قال : اتفق البصراء من الحكماء على أن الدنيا هي النفس
وماهويت .

والحجة في ذلك أن الله عز وجل ، قال : (زين للناس حب
الشهوات من النساء والبنين والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة ،
والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا)^(٢) .

فهذه الأمور التي ذكرها الله عز وجل ، هي من هوى النفس
ولذتها ، وبها تلهو عن الآخرة وذكرها .

(١) سورة الحديد : ٢٠ .

(٢) سورة آل عمران : ١٤ .

فإذا ترك العبد ماتهواه النفس ترك الدنيا .
ألا ترى أن العبد قد يكون فقيراً لاشيء له ، وهو يتمنى الدنيا ،
ويهوى مجناها ، وينوى أن لو أمكنه منها ما يريد ، لمتع بذلك ونال
لذته ؟

فهو عند الله تعالى ، من الراغبين على قدر همته ^(١) ، إلا أنه أقل
حساباً ممن نالها واستمتع بها .

فأول درجات الزهد : هو الزهد في اتباع هوى النفس ، فإذا هانت
على المرء نفسه لم يبال على أى حال أمسى وأصبح ، إذا وافق محبة الله
تعالى ، عند ذلك ، على مخالفة نفسه ، ومنعها من محبوبها من الشهوات
واللذات والراحات ، ومقارنة الأحياء والأخدان والأصحاب من أهل
الغفلة ، ومن كان منهم غوياً على ذلك الأمر الذى يريده العبد ، فإن آفة
العبد : صحبة من يريد ما يريد .

ثم أخذ البلغة من الطعام والشراب واللباس والمزول والنوم والكلام
والنطق والاستماع ، وترك التمنى لشيء من الدنيا ، والحذر من تحليها .
لأن النبي ﷺ قال : « الدنيا خضرة حلوة » .

فيتوهم العبد فناءها ؛ فيقصر فيها أمله ، مع توقع الموت ، والتشوف ^(٢)
إلى الآخرة ، والشوق إلى النزول فى دار بقائها ، والعمل فى ذلك !

(١) عزيمته .

(٢) الطموح يبصره إليها (التطلع إليها) .

ولذلك يخلع الراحة من القلب بدوام الفكرة . ومن البدن بدوام الخدمة .

فهذا أول درجات الزهد .

وقال سفيان الثوري ، رحمه الله تعالى ، ووکیع بن الجراح وأحمد ابن حنبل ، وغيرهم : رحمهم الله تعالى : إن الزهد في الدنيا قصر الآمال .

وهذا يدل على ما قالت الحكماء : لأنه من قصر أمله : لم ينعم ؛ وكانت الغفلة منه بعيدة .

وقالت طائفة من الناس : « الزاهد في الدنيا هو الراغب في الآخرة ، الذي قد جعلها نصب عينيه ، كأنه يرى عقابها وثوابها ، فهو عازف عن الدنيا » .

وهكذا يروى أن النبي ﷺ ، قال لحارثة : « كيف أصبحت يا حارثة ؟ »

« قال : مؤمناً حقاً يارسول الله »

فقال النبي ﷺ ، : « وما حقيقة إيمانك ؟ »

قال : « عرفت نفسي عن الدنيا ، فأظمأت لذلك نهاري . وأسهرت ليلي ، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً ؛ وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتناعمون ، وإلى أهل النار يتعاوون .

فقال النبي ﷺ ، « مؤمن نور الله قلبه ، عرفت فالزم » (١) وقال بعض العلماء : الزهد خروج قيمة الأشياء من القلب .
والزهد في الدنيا : يدق جداً ويخفى ، ولكل عبد على قدر علمه بالله تعالى زهد .

فمن نفي الرغبة في الدنيا عن قلبه شيئاً بعد شيء ، يرى غاية الزهد ومن تواني عن نفسه ولم يخالفها عند هواها ، لم يعزف عن الدنيا ولم يشرف على الآخرة .

قال بعض العلماء : الزاهد في الدنيا حقاً لا يذم الدنيا ولا يمدحها ، ولا يفرح إذا أقبلت ، ولا يحزن إذا أدبرت (٢) .

قال أبو سعيد رحمه الله تعالى : قال بعض البدلاء رحمهم الله تعالى : لا يكون زاهداً مستكمل الزهد ، أو يستوى عنده الحجارة والذهب ، ولا تستوى الحجارة والذهب حتى يكون معه من الله تعالى آية ، فتحول الحجارة ذهباً ، فعندها تخرج قيمة الأشياء من قلبه . وسمعته يقول : لم تستو الحجارة والذهب ، عند أحد من الصحابة ، رضی الله عنهم ، بعد رسول الله ﷺ ، إلا عند أبي بكر رضی الله عنه !

(١) البراز من حديث أنس . والطبراني من حديث الحارث بن مالك . وسندها ضعيف .

(٢) ومن ذلك قوله تعالى : (لکن لاتأسوا علی ما فاتکم ولا تفرحوا بما آتاکم) الحديد :

قلت : فعلى أى معنى زهد الزاهدون ؟ !

قال : على معان شتى .

فهم من زهد لفرغ القلب من الشغل ، وجعل همه كله فى طاعة الله تعالى ، وذكره وخدمته ، فكفاه الله عند ذلك .

فهكذا : روى عن النبي ﷺ أنه قال : « من جعل الهم (١) همًا واحدًا كفاه الله سائر همومه » .

وقال عيسى عليه السلام : « بحق أقول لكم : إن حب الدنيا رأس كل خطيئة ، وفى المال داء كبير .

قالوا : ياروح الله ، ماداوّه ؟

قال : لا يعطى حقه .

قالوا : فإن أعطى حقه .

قال : يكون فيه فخر وخيلاء .

قالوا : فإن لم يكن فيه فخر ولا خيلاء .

قال : يشغله استصلاحه عن ذكر الله » .

ومهم من زهد لحقّة الظهر ، وسرعة الممر على الصراط ، إذا حُبس

أصحاب الأثقال للسؤال .

فهكذا روى عن النبي ، ﷺ ، أنه قال : « عُرِضَ عَلَى

(١) من جعل انجابه إلى الله فحسب ، أو إلى التقوى فحسب : كفاه الله جميع مشاكلة

الأخرى .

أصحابي ، ففقدتُ عبد الرحمن بن عوف - أو قال احتبس عليّ -
فقلتُ : ما بطأك عليّ ؟

قال : لم أزل أحاسب بعدل^(١) مكثرة مالي ، حتى جرى مني من
العرق مالو وردت عليه سبعون من الإبل عطاشاً ، قد أكلت جِمضاً^(٢)
لصدرت^(٣) عنه رواء ! »

وروى عن النبي ﷺ من غير طريق أنه قال : « الأكثرون هم
الأقلون يوم القيامة ، إلا من قال بالمال هكذا وهكذا ، عن يمينه وعن
شماله ، ومن بين يديه ومن خلفه ، بين عباد الله » .

قال ﷺ : « مامن غني ولا فقير إلا ود يوم القيامة أن الله تعالى ،
كان جعل رزقه في الدنيا قوتاً^(٤) . »

وروى أن أبو ذر عن النبي ﷺ أنه قال : « مايسرنى : أن لي مثل
أحد ذهباً ، أنفقته في سبيل الله تعالى ، تأتي علي ثلاثة ، يكون منه عندي
شيء ، إلا دينار أرصده لدين » .

ومهم : من زهد رغبة في الجنة ، واشتياقاً إليها ، فسلى عن الدنيا

(١) العدل : الذي يعادل في الوزن والقدر .

(٢) نبت فيه ملوحة .

(٣) عادت ورجعت .

(٤) وفي ذلك أيضاً قال ﷺ : « اللهم اجعل رزق آل محمد كفافاً » وقال صلى الله عليه

وسلم : « اللهم أحيني مسكيناً وأمئتي مسكيناً واحشرنى في زمرة المساكين » .

وعن لذاتها ، حتى طال به الشوق إلى ثواب الله تعالى ، الذى دعاه إليه ، ووصفه له عز وجل (١) .

وروى فى الحديث : أن الله جل ذكره يقول : « وأما الزاهدون فى الدنيا : فإنى أبيعهم الجنة » .

وقال بعض العلماء : لاتحسن قراءة إلا بزهد !

وأعلى درجات الذين زهدوا فى الدنيا : هم الذين وافقوا الله تعالى فى محبته ، فكانوا عبيداً عقلاء عن الله عز وجل ، أكياساً محبين ، سمعوا الله جل ذكره ، ذمَّ الدنيا ، ووضع من قدرها ، ولم يرضها داراً لأولياته ، استحيوا من الله عز وجل ، أن يراهم راكنين إلى شىء ذمه ولم يرضه ، وجعلوا ذلك على أنفسهم فرضاً ، لم يبتغوا عليه من الله عز وجل جزاء ، ولكن وافقوا الله فى محبته (٢) كرماء ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

فأهل الموافقة لله تعالى فى الأمور : هم أعقل العبيد ، وأرفعهم عند الله قدراً .

(١) وفى ذلك يقول الله تعالى : (تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة) الأنفال : ٦٧ - ومن ذلك قوله تعالى : (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى) النازعات .

(٢) ومن ذلك قوله تعالى : (يحبهم ويحبونه) وقوله تعالى : (رضى الله عنهم ورضوا عنه) البيئ : ٨ .

وهكذا روى عن أبي الدرداء رضى الله عنه ، أنه قال : « يا حبيذا نوم الأكياس وإفطارهم ! ! كيف غنموا سهر الحمقى وصيامهم ؟ ! ولثقال ذرة من صاحب تقوى ويقين : أوزن عند الله من أمثال الجبال من أعمال المغترين » (١) .

وفى هذا بلاغ لمن عقل عن الله عز وجل .
وبالله التوفيق .

وروى عن ابن عمر عبد العزيز ، رضى الله عنه : أنه نظر إلى شاب مصفر فقال له : « ما هذا الصفار يا غلام ؟ » .

قال : أسقام وأمراض يا أمير المؤمنين !

قال : لتصدقني !

قال : أسقام وأمراض .

قال : لتخبرني !

قال : يا أمير المؤمنين ، عزفت نفسى عن الدنيا ، فاستوى عندى حجرها وزهبا ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاوون ، وأهل النار فى النار يتعاوون (٢) .

(١) ومن ذلك قوله ﷺ : (الله فى أصحابى ، فوالله لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه) .

(٢) ومن ذلك قوله ﷺ : (أظنت السماء وحق لها أن تنط ، لم يبق فيها موضع أربع أصابع إلا وملك ساجد لله تعالى ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ، ولا تلذثتم بالنساء على الفراش ، ولخرجتم إلى الصدقات تجأرون إلى الله تعالى) .

فقال له عمر : أنى لك هذا يا غلام ؟

قال : اتق الله يفرغ عليك العلم إفراغاً^(١) .

إنه لما قصر بنا عن علم ما عملنا تركنا العمل بما علمنا ، ولو عملنا ببعض ما عملناه لورثنا علماً لا تقوم له أيداننا^(٢) .

وروى عن أبي بكر الصديق ، رضى الله عنه : أنه استسقى ، فأتى بإناء فلما قربه إلى فيه وذاقه نحاه ، ثم بكى ، فقيل له فى ذلك .

فقال : « رأيت رسول الله ، ﷺ ، ذات يوم وهو يدفع بيديه كأن شيئاً يقع ، لا أرى شيئاً ، فقلت : يا رسول الله ، أراك تدفع بيدك ولا أرى شيئاً ! فقال : نعم ، تلك الدنيا تمثلت لى فى زينتها ، فقلت : إليك عنى^(٣) . ! فقالت إن تنج منى فلن ينجو منى من بعدك ! »

قال أبو بكر رضى الله عنه : « فأخاف أن تكون أدركنى » .

قال : « وكان فى الإناء الذى شرب أبو بكر ، رضى الله عنه ، منه :

ماء وعسل ، فبكى إشفاقاً من ذلك » .

ويروى فى بعض الحديث : أن أصحاب محمد ، ﷺ : لم يأكلوا

(١) ومن ذلك قوله تعالى : (واتقوا الله ويعلمكم الله) وقوله تعالى : (ومن يؤمن بالله

يهد قلبه) والآيات كثيرة جداً فى هذا الباب .

(٢) ومن ذلك قوله ﷺ : « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » .

(٣) عملاً بقوله تعالى : (ولا تمدن عينيك إلى مانتنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا

لنفتنهم فيه ، ورزق ربك خير وأبقى » طه - ١٣١ .

تلذذاً ، ولم يلبسوا تنعماً^(١) .

وفي رواية : « أن أصحاب محمد ، صلى الله عليه وسلم ، الذين اتسعوا في الدنيا من بعده - حين فتحت عليهم من حلها - أنهم بكوا من ذلك وأشفقوا ، وقالوا : نخاف أن تكون عُجَلت لنا حسناتنا » .
فليتق الله عبد ، ولينصف من نفسه ، وليلزم منهاج من مضى ، وليعترف بالتقصير ، ويسأل الله الإقالة !

باب

الصدق في التوكل على الله عز وجل

قال الله عز وجل : (فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)^(٢) .

وقال تعالى : (وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)^(٣) .

وقال تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)^(٤) .

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « يدخل الجنة من أمتي سبعون

(١) لأن ذلك شأن الكافرين ، واسمع قوله تعالى : « والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما

تأكل الأنعام ، والنار مثوى لهم » محمد - ١٢ .

(٢) آل عمران ١٢٢ .

(٣) المائدة ٢٣ .

(٤) آل عمران ١٥٩ .

ألفاً بغير حساب ، وهم : لا يتطيرون ، ولا يكتون ولا يسترقون ، وعلى ربهم يتوكلون» (١) .

وقال عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، عن النبي ، صلى الله عليه وسلم : « لو توكلتم على الله حق توكله : لرزقكم كما يرزق الطير : تغدو خياصاً (٢) وتروح بطاناً » (٣) .

وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : « العز والغنا يجولان في طلب التوكل ، فإذا أصاباه أوطنا » .

فالتوكل - في نفسه ووجوده في القلب - : هو التصديق لله عز وجل ، والاعتماد عليه ، والسكون إليه ، والطمأنينة إليه في كل ما ضمن ، وإخراج الهم من القلب بأمر الدنيا والرزق ، وكل أمر تكفل الله به ، والعلم بأن كل ما احتاج إليه العبد من أمر الدنيا والآخرة ، فالله مالكة والقائم به ، لا يوصله إليه غيره ، ولا يمنعه غيره مع خروج الرغبة والرهبة والخوف من القلب ممن سوى الله تعالى ، والثقة به والعلم الخالص ، واليقين الثابت : أن يد الله المبسوطه إليه ، الموفية له من كل ما طلب ، فلا يصل إليه معروف إلا من بعد أمره ، ولا يناله مكروه إلا من بعد إذنه !

(١) متفق عليه .

(٢) جياًعاً .

(٣) رواه الترمذى وقال : حسن .

وهكذا روى عن الفضيل ، أنه قال : المتوكل على الله ، الواثق به : لا يتهمه ، ولا يخاف خذلانه .

وكذلك المتوكل على الله : إذا ملكه الله تعالى شيئاً من أمر الدنيا وفضل عنده ، لم يدخره لغد إلا بالنية أن الشيء إنما هو لله ، وموقوف لحقوق الله ، وهو خازن من خزان الله ، فإذا رأى موضع الحاجة سارع إلى الإخراج والبذل والمواساة ، وكان في الذي يملك وإخوانه سواء . وإنما يجب ذلك عليه لأهل السر خاصة ، والقراة ، وأهل التقوى ، ثم لعام المسلمين ، إذا رآهم على حال ضرورة غير نقص حالهم .

وروى عن النبي ﷺ ، أنه قال : « ليس الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال ، ولا بإضاعة المال ، ولكن الزهد في الدنيا أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك ، وإذا أصابتك مصيبة كنت بثوابها أفرح منك بها لو بقيت عنك » (١) .

وقال بلال رضي الله عنه : « جئت إلى النبي ، ﷺ ومعى تمر فقال : ما هذا ؟

قلت : شيء ادخرته لإفطارك .

فقال : أنفق بلال ، ولا تخش من ذي العرش إقللاً ، أما خشيت

(١) الترمذى وابن ماجه عن أبي ذر .

أن يكون له بخار في جهنم؟» (١) .

ويروى عن عائشة رضی الله عنها ، أنها قالت : « إني لست كأسماء - یعنی أختها - إن أسماء لا ترفع شيئاً لغد ، وأنا أجمع الشيء إلى الشيء » .

وروى عن عائشة أيضاً رضی الله عنها : « أنها فرقت الدراهم ، وهي ترفع درعها ، فقالت لها خادمتها : ألا أبقيت درهماً للحم ؟ قالت : أفلا ذكرتني ! » .

وروت عائشة رضی الله عنها ، عن النبي ﷺ : أنه بات في مرضه الذي قبض فيه شبيهاً بالقلق ، فلماً أصبح قال : « ما فعلت الذهبية ؟ - وكانت قيمتها ستة وخمسين درهماً - فقال : أخرجتها ، فإظن محمد بربه لو لقيه وهذه عنده ؟ ! » .

وروى عن مسروق رحمة الله عليه ، أنه قال : « أوثق ما أكون بالله إذا قالت الخادم : ليس عندنا شيء ! »

قلت : فالتوكل على الله تعالى بالأسباب أو بقطع الأسباب ؟
قال : بقطع أكثر الأسباب ، وتخطئ إلى المسبب ، فتسكن إليه (٢) .

(١) البرزاق وأبو يعلى والطبراني بنحوه ، وأسانيد كلها ضعيفة . وقال الميثمي : إسناده

حسن .

(٢) وفي ذلك يقول الله ، تعالى : (أليس الله بكاف عبده) ؟ .

قلت : وهل يتداوى المتوكل ، أو يتعالج ؟
قال : الأمر في هذا على معان ثلاثة : وقد خصّ تبارك وتعالى بترك
الدواء والأسباب طائفة ، لقول النبي ﷺ : « يدخل الجنة من أمّتي
سبعون ألفاً بلا حساب ، هم الذين لا يكتونون ، ولا يسترقون ، وعلى
ربّهم يتوكلون ! » (١) .

وقال النبي ﷺ : « ماتوكّل من اکتوى واسترقى ! » (٢) .
وقال ﷺ : « من ردّته الطيرة فقد قارن الشرك » (٣)
وقد أمر النبي ﷺ . بالدواء والرقى وأمر بالرقية . وقطع لأبي بن
كعب رضی الله عنه ، عرقاً .

فهذا على معاني قول المغيرة بن شعبه : لم يتوكل من اکتوى واسترقى
من هؤلاء السبعين ألفاً ، الذين خصّهم النبي ﷺ ، كذلك فسره بعض العلماء .
وما كان من سوى ذلك : فبإباح لهم من سائر الناس . وهو غير
ناقص من توكلهم ، إذا كان معهم العلم والمعرفة ، وكان نظرهم إلى ربّ
الداء والدواء ، إن شاء أن ينفع بالدواء ، وإن شاء أن يضرّ .
وقد يطلب شفاؤه بالدواء فيكون فيه سقمه ، وقد مات غير إنسان
من الدواء وقطع العرق ، ولما طلب الشفاء ، وقد يرجو منفعتة في الشيء

(١) متفق عليه .

(٢) الترمذی بنحوه وحسنه ، والطبرانی واللفظ له .

(٣) أحمد والطبرانی بسند حسن عن ابن عمرو .

فتكون فيه مضرته . وقد يخاف الضرر من شيء ، فتكون فيه المنفعة .
فالصادق واثق متوكل على ربه . فإنما توكل عليه ، حين علم أنه
حَسْبُهُ من جميع خلقه . فلم يجد فقد شيء يمنع الله ، لأن الله حسبه
وهو بالِغُ أمرِهِ .

قلت : فمن قال : أتوكل على الله لأكفي ؟

قال : لا يخلو هذا القول من معنيين :

معنى : أن يكفيه مؤنة الجزع والهلع ، لأنه يتحول عن شيء قد
قدره الله عليه أن ينزل به ، بالتوكل .
فهذا قولنا وقول من أثبت القدر .

ومن قال : إنه يكفيه ما استكفاه لاحالة مثل قوله : لا يأكلني السبع
لتوكلى . والذي يأتي بطلب يأتي بلا طلب ، فالتوكل يدفع عنى إذا
استكفيه كل مؤنة كنت أخافها ، فليس يعجبنا هذا القول ؛ لأن المتوكل
قد يُكفى وقد لا يكفى وتوكله غير ناقص .

قلت : مثل ماذا ؟ اشرح لى من ذلك شيئاً .

قال : نعم . حيث ذبحت يحيى بن زكرياء امرأة جبارة فى طشت ،
ألم يكن متوكلاً ؟ ! .

وحين نُشِرَ زكرياء ، صلوات الله عليه ، بالمنشار ألم يكن
متوكلاً ؟ ! .

وكذلك الأنبياء عليهم السلام . قتلوا ونيل منهم المكروه ، وهم

أقوى الخلق يقيناً وأصدقه .

وهذا محمد ﷺ ، حين هرب إلى الغار هو وأبو بكر رضى الله عنه ، فاختبئوا فيه ، وحين كسر المشركون رباعيته ﷺ . وأدموا وجهه ألم يكن متوكلاً ؟

أفلا ترى أن التوكل إنما هو الاعتماد على الله عز وجل ، والسكون إليه ثم التسليم بعد ذلك لأمره . يفعل ما يشاء ؟ !

وهكذا روى عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : « من يتوكل على الله فهو حسبه . إن الله بالغ أمره » قال : قاض أمره : « قد جعل الله لكل شيء قدراً » .

قال : أجلاً ومنتهى ينتهى إليه العبد . وليس المتوكل بالذى يقول : « تقضى حاجتى » .

فهذا تفسير ابن مسعود رضى الله عنه : يخبر أن المتوكل على الله هو الذى يلجأ إلى الله تعالى . ويعلم أنه لا يتم شيء إلا من قبل الله تعالى . الذى يعطى ويمنع بقدرته . .

فالتوكل على الله تعالى : لا يستوحش فى حالة المنع . ولا يستجلب بالتوكل الإعطاء . لأن الحرص لا يعطى ولا يمنع . والله جل وعز مانع ومعطى .

وقد يُعطى العبدُ الشيء بلا توكل . ويمنع وهو متوكل .
فقد يرى الجوسى . والكافر . والجاحد . والفاجر . المضيع لأمر الله

عز وجل ، الذى لاصدق له ولايقين ، فقد يرى هازلون يكفرون ،
وتقضى لهم الحوائج ، والمتوكل الصادق الموقن لا تقضى له حاجة ، حتى
يموت ضراء وهزلاء !

وإنما التوكل : ترك السكون إلى أسباب الدنيا ، ونفى الطمع من
المخلوقين ، والإيثار منهم ، حين علم المتوكل : أنه صائر إلى المعلوم ،
فرضى بالله تعالى ، وعلم أنه لا يدرك بالتوكل تعجيل ما أخر الله تعالى ،
ولا تأخير ما عجل ، ولكنه اكتسب إسقاط الهلع والجزع ، واستراح من
عذاب الحرص ، وراض نفسه بأدب العلم والمعرفة وقال : ما قلر
سيكون ، وما يكون فهو آت .

وكذلك قال بعض الحكماء : انتقم من حرصك بالتنوع ، كما تستقم
من عدوك بالقصاص .

وقال بعض الصحابة ، رضوان الله عليهم : « دخلت على النبي ،
ﷺ ، وفي البيت تمر غابرة فقال : خذها ، لو لم تأتها لأنتك ! »
حدثنا محمد بن يعقوب ، قال : حدثنا أحمد بن حنبل ، قال :
حدثنا مروان بن معاوية قال : حدثنا المولى عن أنس بن مالك ، رضى
الله عنه ، قال : « أهدي إلى النبي ﷺ طوائر فأطعم خادماً طائراً ، فلما
كان من الغد أتته به فقال : ألم أنهك أن تحباً رزقاً لغد؟ »
فهذا ما لا يسهل الناس جهله من التوكل .

وغاية التوكل : أجل من ذلك .

باب

الصدق في الخوف من الله عز وجل

- قال الله تعالى : (وَأَيُّ قَارِهُبُونَ) ^(١) (وَأَيُّ قَاتِقُونَ) ^(٢) .
- وقال تعالى : (فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي) .
- وقال تعالى : (يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ) ^(٣) .
- وقال تعالى : (كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)
- وقال تعالى : (وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ) ^(٤) .
- وقال تعالى : (يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ)
- وقال النبي ﷺ : «خف الله كأنك تراه» .
- قال ذلك لابن عباس رضی الله عنه .
- قالذي يبيح الخوف حتى يسكن القلب : هو دوام المراقبة لله عز وجل ، في السر والعلانية ؛ وذلك لعلمك بأن الله تعالى ، يراك ولا يخفى عليه شيء من حركاتك ظاهراً وباطناً .

(١) البقرة : ٤٠ و ٤١ .

(٢) التحل : ٥٠ .

(٣) طاهر : ٢٨ .

(٤) يونس : ٦١ .

ف عند ذلك يجل مقامه عليك فى كل حركة ظاهرة وباطنة ، وتحذر أن يرى بقلبك شيئاً مما لا يجبه ولا يرضاه بالوقوف منك على همك ، إذا كان يعلم ما فى نفسك .

فن ألزم قلبه فى الحركات كلها أن الله تعالى ، يراه رجع عن كل ما يكره بعون الله ، فطهر قلبه واستنار ، وسكنه الخوف ، ودام حذره من الله ؛ فكان مشفقاً فى جميع الأحوال ، وعظّم أمر الله تعالى فى قلبه ^(١) ، فلم تأخذه فى الله لومة لائم ، وقلّ وصغر من دون الله فى عينه ممن ضيّع أمر الله .

وذكر الخوف يطول ، وهذه الأصول التى من استعمالها تؤديه إلى الحقائق .

فهذا ظاهر الخوف ومابقى من صفته أكثر .

(١) ومن ذلك : قوله تعالى ، حكاية عن خوف المؤمنين : (قالوا إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين) الطور : ٢٦ .

باب

الصدق في الحياء من الله عز وجل

يروى عن النبي ﷺ أنه قال : « الحياء : من الإيمان »^(١)
وروى عنه ﷺ أنه قال : « الحياء خير كله »^(٢) .
وقال ﷺ : « استحيوا من الله حق الحياء ، من استحيا من الله
حق الحياء ، فليحفظ الرأس وما حوى ، والبطن وما وعى ، وليذكر
المقابر والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا »^(٣)
وقال النبي ﷺ : « استح من الله كما تستحي من رجل صالح من
قومك »^(٤) .

وقال رجل يارسول الله : مانبدي من عوراتنا وما نذر ؟
قال : « استر عورتك إلا من أهلك وماملكت يمينك »
قال : فأحدنا يكون خالياً .

(١) مسلم والترمذى .

(٢) مسلم وأبو داود .

(٣) أحمد والترمذى والحاكم والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود .

(٤) هذا مثل تقرىبى ، وإلا فالله أكبر ، فالاستحياء منه يجب أن يكون على قدره ، ومع
هذا فما أحد قدر الله حق قدره ، لأنه لا يحيط بقدره حقيقة إلا هو ، والحديث رواه ابن عدى
بنحوه .

قال : « فإله أحق أن يستحي منه » .

وكان أبو بكر رضى الله عنه ، إذا ذهب إلى الخلاء يغطى رأسه ويقول :

« إني لأستحي من ربي »

وهذه أخبار تدل كلها على قرب الله عز وجل من القوم ، لأن المستحي من الله تعالى ، يرى اطلاع الله تعالى عليه . ومشاهدته له في جميع الأحوال .

قلت : فما الذى يبيح الحياء ؟

قال : ثلاث خصال :

الأولى : تفكيرك في دوام إحسان الله تعالى ، إليك مع تضييع الشكر منك ، ومع دوام إساءتك وتفريطك .
والثانية : أن تعلم أنك بعين الله عز وجل في متقلبك ومشواك .
والثالثة : ذكر لوقوفك بين يدي الله عز وجل ، ومساءلته إياك عن الصغير والكبير .

قلت : فما الذى يُشيد الحياء ويقويه ؟

قال : « الخوف لله عز وجل ، عند الهوى الحاطر الواقع في القلب ! فيفزع القلب ، ويستوحش عندما يعلم أن الله تعالى ، يرى ما فيه فيثبت الحياء من الله ^(١) ، فإذا دام على ذلك زاد الحياء وقوى »

(١) ومن ذلك قوله تعالى : (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا ،

فإذا هم مبصرون) الأعراف - ٢٠١ .

قلت : قالننى يولد الحياء ماهو؟

قال : الفرع من أن يكون الله تعالى ، عنه معرضاً وله ماقتاً ، ولفعله

غير راض .

قلت : فإ القالب على قلب المستحي من ربه ؟

قال : إجلال رؤية ما يراه ، فحيثذ يهاب الله عز وجل ، ويستحي

منه .

قال أبو سعيد رحمه الله تعالى : سمعت بعض المريدين سأل بعض

أهل المعرفة .

قال : ما علامة هية الله في قلب العارف بالله؟

قال : إذا استوى عنده الأضنى والذباب .

قلت : فبم يضعف الحياء؟

قال : بترك المحاسبة وترك الورع .

قلت : فكيف أحوال المستحي في نفسه؟

قال : طول الخشوع ودوام الإخبات^(١) ، وتكسر الرأس ،

وانحصار الطرف ، وقلة النظر إلى السماء ، وكلال اللسان عن كثير من

الكلام ، والفرع من التكشف في الخلاء ، وترك العبث والضحك ،

والحياء عند إتيان ما أباحه الله ، فكيف بذكر غارض ، مما نهى الله

تعالى عنه؟

(١) خضوع القلب .

والناس يتفاوتون في الحياء على قدر قرب الله تعالى منهم وقربهم

، منه ،

باب

الصدق في معرفة نعم الله تعالى والشكر له

قال الله عز وجل : (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ
وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً) (١)

وقال تعالى : (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا) (٢)

وقال : (اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ) (٣)

فإذا أفاق العبد من الغفلة ، فكر ونظر إلى نعم الله تعالى عليه ،
وتكاملها قديماً وحديثاً .

فأما نعمه القديمة : فذكره لك قبل أن تك شيئاً ، وماخصك به
من توحيده ، والإيمان به ، والمعرفة له ، فأجرى باسمك القلم في اللوح
المحفوظ مسلماً ؛ ثم أهلكت القرون السالفة ، وجعلتك في شردمة من
المؤمنين ناجية ، حتى أخرجك في خير أمة ، وأكرم دين ، ومن أمة

(١) سورة الإسراء : ٧٠ .

(٢) سورة إبراهيم من الآية : ٣٤ .

(٣) سورة البقرة في الآيتين : ٤٠ ، ٤٧ .

حبيبه محمد ، ﷺ ، ثم هداك للسنة واستعملك بالشرعية وابعذك من الزيف والأهواء ، ثم رباك وكلاك وغذاك حتى وجبت عليك الأحكام . فأغفلت نعمته ، وفرطت في حفظ وصيته ، وركبت هواك من عمرك حيناً ، وفي كل ذاك لا يكافئك بإساءتك ، بل يسترك ، ويحلم عنك ، وينظرك .

ثم عطف عليك بعد ذلك ، بعد ما كنت شروداً فأيقظك من الغفلة ، وعرفك ما فاتك من حظك من طاعتك ، فوهب لك الإجابة إليه ، وأجلسك على طيب مرضاته .

فوجب عليك الآن شكر بعد شكر ! فأى نعماء تحصى . وعلى أيها تشكر؟

ولا بد من معرفة الشكر ، ومباشرته .

والشكر على ثلاثة وجوه :

شكر القلب ، وشكر اللسان ، وشكر البدن .

فأما شكر القلب : « فهو أن تعلم أن النعم من الله وحده لا من غيره »

وأما شكر اللسان : « فالحمد والثناء عليه ، ونشر آلائه ، وذكر

إحسانه »

وأما شكر البدن : « فلا تستعمل جارحة - أصحابها الله تعالى

وأحسن خلقها - في معصية ، بل تطيع الله ، تعالى ، بها »

وكذلك كل ما خوّلك وملّكك من الدنيا جعلته عوناً لك على

طاعته . ولم تحوله في باطل ، ولم تنفقه في سرف ، ثم تبذل لله عز وجل ذكره وعزَّ جدُّه الخدمة ، وتعطيه الجهد من نفسك .

وهكذا يروى عن النبي ﷺ : « أنه قام حتى تورمت قدماه ؟ فقيل له : يا رسول الله ما هذا التعب ؟ أليس قد غفر الله لك ؟ ؟

قال : أفلا أكون عبداً شكوراً »

وقال الله عز وجل : (أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا)^(١)

وقال تعالى : (لئن شكرتم لأزيدنكم)^(٢)

فإذا بلغ العبد من الشكر لله عز وجل غاية ، انقطع فنظر ، فإذا شكره نعمة من الله تعالى ، تحتاج إلى أن يشكر الله تعالى عليها ، إذ جعله من الشاكرين ، فعمل عند ذلك في شكر الشكر ! ! ثم كاد يتحير ، تواترت عليه من الله تعالى الألفاظ بالبر والكرامات .

وبلغنا أنه فيما ناجى به موسى ، عليه السلام ، ربه ، عز وجل ، قال : « يارب أمرتني بالشكر على نعمتك ، وإنما شكركى إياك نعمة من نعمك ! !

فأوحى الله إليه : « لقد علمت العلم ، إذ علمت أن ذاك منى فقد شكرتني »

وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : ذكر النعمة شكرٌ ما ،

فدلت النعم على محبة المنعم !

(٢) سورة إبراهيم من الآية : ٧ .

(١) سورة مابأ من الآية : ١٣ .

باب الصدق في المحبة

وقد أجمع الحكماء أنها تستخرج من ذكر النعم .
وروى عن ابن عباس رضي الله عنها ، عن النبي ﷺ أنه قال :
« أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه ، وأحبوني لحب الله ، وأحبوا أهل
بيتي لحبي » (١) .

وقال الله ، عز وجل : (والذين آمنوا أشد حبا لله) (٢)
وبلغني أن الله عز وجل ، أوحى إلى عيسى ، عليه السلام :
« يا عيسى بحق أقول لك : إني أحبُّ إلى عبدى المؤمن من نفسه التي بين
جنيه » .

وبلغنا عن الحسن البصرى ، رضي الله عنه : أن ناماً قالوا ، على
عهد رسول الله ﷺ : « يا رسول الله إنا نحب ربنا حبا شديداً » فجعل
الله تعالى لمحبه علماء وأنزل ، عز وجل :
(قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) (٣)

(١) الترمذى والحاكم عن ابن عباس بسند صحيح .

(٢) سورة البقرة الآية : ١٦٥ .

(٣) سورة آل عمران : ٣١ . وذكر هذا القول عن الحسن بن كثير في تفسيره .

فمن صدق المحبة : اتباع الرسول ﷺ في هديه ، وزهده وأخلاقه ،
والتأسي به في الأمور ، والإعراض عن الدنيا وزهرتها وبهجتها ، فإن الله
عز وجل جعل محمداً ﷺ علماً ودليلاً وحجة على أمته .
ومن صدق المحبة لله تعالى ، إيثار محبة الله عز وجل ، في جميع
الأمور على نفسك وهواك ، وأن تبدأ في الأمور كلها بأمره قبل أمر
نفسك .

وبلغنا أن موسى عليه السلام ، قال : « يارب أوصني »
قال الله عز وجل : « أوصيك بي » .

قال : « يارب كيف توصيني بك ؟ »
قال : « لا يعرض لك أمران ؟ أحدهما لي والآخر لنفسك ، إلا آثرت
محبتي على هواك » .

فالمحب لله : قد جعل ذكر الله تعالى بقلبه ولسانه فرضاً على نفسه ،
فهو يتفرغ من الغفلة ويستغفر منها ، وكذلك جوارحه : إنما هي وقف
لخدمة من أحبه .

فهو غير ساه ولا لاه وإنما همه أن يرضى من أحبه ، فقد بذل المجهود
في موافقته في أداء فرائضه ، واجتناب مناهيه ، فهو مترين له بكل
طاقته ، حذراً من أن يأتي عليه أمر يسقطه من عين من أحبه .

وهكذا روى النبي ﷺ من غير طريق ، أنه قال : « يقول الله عز
وجل : ماتقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال يتقرب

إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ويداً ومؤيداً ۖ
دعاني فأجبته ، ونصح لي فنصحت له ۝ (١)

فعلامة المحب : الموافقة للمحبوب ، والتجارى (٢) مع طرقته في
كل الأمور ، والتقرب إليه بكل حيلة ، والهرب من كل ما لا يعينه على
مذهبه (٣)

قلت : فالحبة على قدر النعم ؟

قال : المحبة بدؤها من ذكر النعم ، ثم على قدر المنعم على قدر
ما يستحق ؛ لأن المحب لله تعالى يجب الله تعالى - عند النعم ، وعند
فقدائها ، وعلى كل حال - حباً صحيحاً منعه أو أعطاه أو ابتلاه أو
عافاه ؛ فالحبة لازمة لقلبه ، على حالة واحدة ، في العقد (٤) ، ثم هي
إلى الزيادة أقرب .

ولو كانت على قدر النعم ، لنقصت المحبة إذا نقصت النعم ، في
وقت الشدائد ووقوع البلاء ، لكن المحب لله تعالى الذى وله (٥) عقله
بربه ، واشتغل برضاه فكان فى شكره لله وذكره حيران ، كأنه ليس نعمته
على أحد إلا وهى عليه ، وهو مشغول بحبه لله عز وجل ، عن كل

(١) البخارى بنحوه وفيه هنا زيادات

(٢) التجارى : المسيرة : أى المتابعة

(٣) مذهبه : قصده وطريقته

(٤) العقد : العزم والنية .

(٥) وله عقله : أى ذهب ، والمعنى هنا : اشتد حبه حتى كأنه ذهب عقله .

الخلق ، وقد أسقطت المحبة لله تعالى ، عن قلبه الكبير والغل والحسد والبغى ، وكثيرا مما يعنيه من أمر الدنيا من مصلحة ، فكيف يذكر ما لا يعنيه ؟ !

قال بعض الحكماء : من أعطى من المحبة شيئا فلم يعط مثله من الخشية فهو مخدوع .

وروى عن الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى ، أنه قال : الحب أفضل من الخوف .

وحدثنا إسماعيل بن محمد قال : حدثني زهير البصرى قال : لقيت شعوانة ، فقالت لى : ما أحسن طريقتك ! إلا أنك تنكر المحبة ! قلت : ما أنكرها ؟

فقالت لى : أنتحب ربك ؟

فقلت : نعم

قالت : فكيف تخاف ألا يجبك وأنت تحبه ؟ !

قلت : أنا أحبه لما أولانى وما نذانى^(١) من معرفته ونعمه ، ولى

ذنوب أخاف أن لا يجبنى لما كسبت^(٢) !

فغشى عليها ، ثم أفاقت فقالت : زه !

(١) نذانى : التدى الجود ، والمعنى هنا : ما أسبغ على من معرفته ونعمه .

(٢) كسب الإثم : أى ارتكبه وتحمله .

قال أبو سعيد رحمه الله تعالى : ما أحسن ما قال هذا الرجل ! هذا كلام صحيح ! !

قال أبو سعيد قدس الله روحه : قال رجل من رفقاء البدلاء : من يحب الله كثير الشأن فيمن يجهه الله .
وبالله التوفيق .

وفى هذا بلاغ لمن أعانه الله تعالى وسدده ، وما بقي من صفات المحبين أكثر !

باب

الصدق في الرضا عن الله عز وجل

قال الله عز وجل : (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) (١) .
قال بعض العلماء رحمهم الله تعالى : ما شهد الله تعالى لهم بالإيمان ، حين لم يرضوا بحكم نبيه ، فكيف إذا لم يرضوا بحكمه عز وجل ؟ !

قلت : فما علامة الرضا في القلب . وما موجوده ؟ !

قال : سرور القلب بمر القضاء .

(١) سورة النساء : ٦٥ . شجر : وقع من نزاع حرجاً : ضيقاً .

وقال بعضهم : الرضا تلقى المصائب بالرجاء والبشر .
وروى عن أنس بن مالك رضى الله عنه . أنه قال : كنت خادم
النبي ﷺ فما قال لي لشيء قط لما فعلت أو ألا فعلت ! إنما كان يقول :
كذا قضى . وكذا قدره^(١) .

وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : « ما أبالي على
ما أصبحت وما أمسيتُ على ما أحببْتُ أو على ما أكره . لأنى لا أدرى
أيُّهما^(٢) خير لى »

وقال عمر أيضاً : « لو أنَّ الصبر والشكر بغيران لى ما أبالي على أيُّهما
ركبت »

فهذا يدلُّك على الرضا من قول عمر رضى الله عنه ، لأن الصبر
لا يكون إلا على ما يكره ، والشكر لا يكون إلا على ما يجب . فقال :
لا أبالي أيُّهما وقع لى ، وذلك لاستواء الحالين عنده .

ويروى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه . أنه قال : « حبذا
المكروهات وإيم الله ما هو إلا الغنى والفقر . وإن حق كل واحد منهما
لواجب إن كان الغنى فإن فيه العطف . وإن كان الفقر فإن فيه الصبر »

(١) قضى وقدر : حكم بما سبق في علمه واقتضاه .

(٢) وفى ذلك يقول النبي ﷺ : (عجباً للمؤمن ، حال المؤمن كله خير له : إن أصابته
نعماء شكر ، وإن أصابته ضراء صبر) . أو كما قال .

وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : أصبحت ومالى فى الأمور
من اختيار .

وقال بعضهم : ومالى من النعم سوى مواقع القدر فى ، كائناً ما كان
وكان قد سقى السم ، فقبل له : تعالج ، فقال : لو علمت أن شفى فى
أن أمس أنى أو أذى ما فعلت .

وقال النبى ﷺ لابن مسعود ، رضى الله عنه : « يابن أم عبد
لا يكثر همك ^(١) ، ما يقدر يكن ، وماترزق تأكله » .

وقال النبى ﷺ فى قصة طويلة لابن عباس رضى الله عنها : « فإن
استطعت أن تعمل لله بالرضا فى اليقين ، وإلا فى الصبر على ماتكره :
خير كبير » ^(٢) .

أفلا ترى أنه ﷺ دعاه إلى أعلى الحالين .

وقال بعض الحكماء : إذا استم فى العبد الزهد والتوكل والمحبة
واليقين والحياء صح له الرضا .

وهو عندنا كما قال وإلا فهو مع الناس ، أوقات وخطرات ^(٣) على
قدر إيمانهم ، ثم يعودون إلى الصبر .

(١) همك : كثرة انشغال بالك . والحديث رواه البيهقى فى الشعب وفى القدر بسند
ضعيف .

(٢) الترمذى من حديث ابن عباس ورواه أيضاً الطبرانى .

(٣) خطرات : ما ينظر فى القلب من تدبير

وقال بعضهم : الرضا قليل ، ومعول^(١) المؤمن الصبر .
فقلت : اشرح لى قول الحكيم : الراضى يتلقى المصائب بالبشر
والسرور .

قال : إن العبد لما صدق فى محبته ، وقعت بينه وبين الله تعالى ،
المفاوضة والتسليم ، فزال عن قلبه التهم ، وسكن إلى حسن اختيار من
أحبه ، ونزل فى حسن تديره وذاق طعم الوجود به ، فامتلاً قلبه فرحاً
ونعياً وسروراً ، فغلب ذلك ألم المصائب والمكروه والبلوى ، فصار اسم
البلوى عليه معلقاً ، فيُستخرج منه إذا نزل به أمور كبيرة ، فتارة يتنعم
بعلمه به إذا علم أنه يراه فى البلوى ، وتارة يعلم أنه ذكره فابتلاه ، ولم
يغفل عنه ، على عظم قدره أن يولى من أمره ما فيه الصلاح ، فيراه تارة
يشكو إليه شكوى المحب إلى حبيبه ، وتارة يئن إليه ؛ وتارة يطعم أن يراه
راضياً عنه^(٢) .

فهكذا قال جل ذكره : (يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ، أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ
رَاضِيَةً مَّرْضِيَةً)^(٣) .

فالرضا تعجله العقلاء عن الله عز وجل ، فى الدنيا قبل الآخرة ،
فخرجوا من الرضا إلى الرضا .

(١) معول المؤمن : سلاح المؤمن .

(٢) ومن ذلك قوله ﷺ بعد أن شكأ إليه ضغفه وقلة حيلته وهوانه على الناس : (اللهم
إن لم يكن بك غضب على فلا أبلى) .

(٣) سورة الفجر : ٢٧ ، ٢٨ .

وهكذا قال عز وجل : (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، وَأَعَدَّ لَهُمْ
جَنَّاتٍ) الآية .

فقد ذكرنا بعض صفات الراضين من ظاهر ما أمكن أن يذكر مثله
في كتاب ، وما بقى من صفاتهم أكثر .
وبالله التوفيق .

باب

الصدق في الشوق إلى الله عز وجل

روى عن النبي ﷺ أنه كان يقول في دعائه : « اللهم إني أسألك
لذة العيش بعد الموت ، والنظر إلى وجهك ، والشوق إلى لقاءك » .
وروى عن أبي الدرداء ، رضى الله عنه ، أنه كان يقول : « أحب
الموت اشتياقاً إلى ربي »

وروى عن حذيفة رضى الله عنه ، أنه قال عند الموت : « حبيب
جاء على فاقة^(١) !! لا أفلح من تدم » .

وروى عن شهر بن حوشب رضى الله عنه ، أنه قال : « أخذت
معاذ ، رضى الله عنه قرحة في حلقة ، فقال اختق^(٢) خنتك ، فوعزتلك
إني أحبك » .

(١) الفاقة : شدة الحاجة إلى الشيء . (٢) اختق خنتك : أى قبض الروح .

وكان على بن سهل المدائني رحمه الله ، يقوم إذا هدأت^(١) العيون ، فينادى بصوت له محزون : « يامن اشتغلت قلوبُ خلقه عنه بما يعقبهم عنه لقاءه ندماً ، ويامن سهت قلوب عباده عن الاشتياق إليه ، إذ كانت أياديهِ^(٢) إليهم قبل معرفتهم به » ثم يبكي حتى تبكي لبكائه جيرته ، ثم ينادى : « ليت شعري سيدي إلى متى تجبسنى^(٣) ! ابغثنى سيدي إلى حسن وعدك ، وأنت العليم أن الشوق قد برح بي ، وطال على الانتظار » ثم يجر مغشياً عليه ، فلا يزال كذلك حتى يحرك لصلاة الصبح .

وكان الحارث بن عمير رحمه الله ، يقول إذا أصبح : أصبحت ونفسي وقلبي مصر على حبك سيدي ، ومشتاق إلى لقاءك ! فعجل بذلك قبل أن يأتيني سواد الليل ، فإذا أمسى قال مثل ذلك ، فلم يزل على مثل هذا الحال ستين سنة .

فالمشتاق إلى الله تعالى ، هو المتبرم^(٤) بالدنيا والبقاء فيها ، وهو محب للموت وانقضاء المدة والأجل .

ومن علامته التوحش^(٥) من الخلق ، ولزوم العزلة والانفراد

(١) هدأت العيون : نامت .

(٢) أياديهِ : نعمه .

(٣) تجبسنى : تقضى بيقاني .

(٤) المتبرم الضجر .

(٥) التوحش : النفور .

بالوحدة ، ومن شأنه القلق والحزن والحنين والنحيب (١) والكمد (٢) والغصة (٣) المنكسرة في الصدر بشدة الشغف (٤) والكلف (٥) والهذيان (٦) بذكر المحبوب ، والارتياح إليه ، والفكرة الصافية بهيجان الهمة (٧) ، وجولان (٨) الروح في الغيوب ، لطلب اللقاء والبهت (٩) ، والدهش والحيرة عند توهم الظفر بالأمل من المأمول ، ونسيان حظه من الدنيا والآخرة ، إلا رؤية من هو إليه مشتاق ، نعم ، ثم يعارضه الآن الخوف الذي هو الخوف أن لا يصل إلى محبوبه ، ويخاف أن يقطع به دونه ، ويحال بينه وبينه ، ويحجب (١٠) عنه ، ثم يخاف أن تحدث حادثة ، إذ كان في دار البلوى ، فقد طالت عليه الأيام والليالي إلى أن يخرج من الدنيا سالماً على الأمر الذي يرضى مولاه .

(١) النحيب البكاء .

(٢) الكمد : الحزن المكثوم .

(٣) مايقف في الخلق من طعام وشراب .

(٤) الشغف : الهوى الشديد .

(٥) الحب والولع .

(٦) الهذيان : الذي يخلط ويتكلم بما لا ينبغي .

(٧) هيجان الهمة : هدة العزيمة .

(٨) جولان الروح : طوفان الروح .

(٩) البهت : الدهش والتحير .

(١٠) يحجب : يمنع .

فهذا بعض ما يمكن ذكره من صفات المشتاقين . وما يقى من
نعيمهم (١) أكثر .

وبالله التوفيق .

باب

الصدق فى الأنس بالله ، تعالى ، وبذكره وقربه

قال بعض الحكماء : الأنس بالله - جل ثناؤه : أرق وأعذب من
الشوق . لأن المشتاق : كان بينه وبين الله تعالى . مسافة خفيفة لعله
شوقه . والمستأنس أقرب من الله . عز وجل (٢) .

وهكذا روى عن النبي ﷺ حين أتاه جبريل عليه السلام . فى
صورة رجل . فسأله عن الإسلام والإيمان . ثم سأله عن الإحسان .
فقال له النبي ﷺ : « أن تعبد الله كأنك تراه . فإن لم تكن تراه فإنه
براك . فقال له : صدقت ! » .

وروى عن النبي ﷺ أنه قال لابن عمر . رضى الله عنه : « اعبد
الله كأنك تراه . فإن لم تكن تراه فإنه براك » (٣)

(١) نعيمهم : وصفهم .

(٢) وقد بين النبي ﷺ مظنة القرب ، فقال : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد
فأكثروا من الدعاء قسمن أن يستجاب لكم » .

(٣) رواه الشيخان .

· وإنما دله على قرب الله عز وجل ، وقيامه عليه ، ومن قرب الله تعالى ، تُسْتَخْرَج حَقَائِقُ الْأُمُورِ فِي كُلِّ مَقَامٍ .

فمن كان مقامه الخوف ، أدركه من قرب الله تعالى - حين علم أنه يراه - الخنزِرُ ، والفرقُ^(١) ، والحشية^(٢) .

ومن كان مقامه المحبة ، أدركه من حقائق قرب الله تعالى حين علم أنه يراه الفرح والسرور والتعيم والمسارة في طلب رضاه والقرية ليراه منافساً راغباً ، يريد القرية إليه ، والمبالغة في محبته .

والصابر في وقت بلواه ومصيبته وما يتحملة لسيدته : مما يقربه من ثوابه ، حين سمع الله عز وجل يقول : (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)

وقال تعالى : (وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)^(٣) .
سهل عليه عند ذلك معالجة الصبر واحتمال مؤنته .

وكذلك أهل كل مقام عبدوا الله تعالى على القرية ، وذلك حين أيقنوا وهم الذين لا يكادون يصلون ولا يرجعون .

وأما العامة من الناس فإنهم عملوا على ما انتهى إليه من الأمر والنهي ، على رجاء ضعيف فخطوا ولم يحققوا ! .

فمن صدق الأنس ما يروى عن عروة بن الزبير رحمة الله عليه : أنه

(١) الفرق : الخوف .

(٢) الحشية : الخوف عن علم ، قال الله تعالى : (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) .

(٣) سورة الطور : ٤٨ .

خطب إلى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، ابنته ، وهو يطوف بييت
الله الحرام ، فلم يجبه ابن عمر ، ولم يرد عليه جواباً ، ثم لقيه عبد الله بعد
ذلك ، فقال له : «إنك كلمتني في الطواف ونحن نتخيل الله بين
أعيننا » .

فالمستأنس : كأنه ينظر إلى ما اشتاق إليه المشتاق :

ويروى عن عبد الواحد بن زيد البصرى رحمه الله تعالى ، أنه قال
، لأبي عاصم الشأمي رضى الله عنه ورحمه : أما تشتاق إلى الله تعالى ؟
قال : « لا » وإنما تشتاق إلى غائب ، فإذا كان الغائب شاهداً فأبى
من تشتاق ؟ » فقال عبد الواحد : سقط الشوق :

وروى عن داود الطائي ، رحمه الله تعالى - وكان من المسلمين
الذين أجمعوا على صدقه وعدالته - قال أيضاً : « إنما تشتاق الغائب » .

قال بعض العلماء رحمه الله : وإنما قالوا : هذا من حقائق الوجود
لقرب الله عز وجل ، كأنهم معه ، إذ كان معهم شاهداً لا يغيب ،
وذلك من الله تعالى تسكين وتطمين . ورحمة وراحة ، عجلها لهم في
الدنيا ، وإلا فما الذى وصل إليهم من الله عز وجل من قربه ؟ !

فمن علامة المستأنس بالله تعالى ، وبقربه أن يكون واجداً^(١) لذكر
الله عز وجل في قلبه ، واجداً لقربه منه لا يفقده على كل حال ، وفي كل

(١) واجداً : المقصود هنا الوجود ضد المعدم .

وقت وكل موطن (١) ، ويكون الله عز وجل وقربه السابق إليه قبل الأشياء ، وذلك إذا سكن قلبه نورُ قرب الله تعالى منه ، فبه ينظر إلى الأشياء ، وبه يستدل على الأشياء (٢) .

وهكذا يروى عن عامر بن عبد الله ، رضى الله عنه ، أنه قال :
« ما نظرت إلى شيء قط إلا كان الله تعالى أقربَ إليّ منه » .
ومن صفات المستأنس : أن يكون متبرماً بالأهل والخليفة كلهم ، مستعذباً (٣) للخلوة والوحدة ، ويكون في البيت المظلم متبرماً بالمصباح إذا رآه ، بل يجيف بابه (٤) ويسبل ستره ويواحد قلبه ، ويألف مليكه ، فيكون به أنيساً ، وبمناجاته متنعماً ، ويكون متفرغاً من طارق يطرقه فينغص عليه خلوته ، ثم تراه مستوحشاً من ضوء الشمس إذا دخل عليه في صلاته ، ويتناقل تلقاء (٥) الخلق ويملهم ، ويكون لقاؤهم ومجالستهم عليه غراماً (٦) وخساراً ، فإذا جنه الليل (٧) ، ونامت العيون وهدأت

(١) الموطن : الوطن (المكان) .

(٢) وفي الحديث القدسي الصحيح : « فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها . . . » متفق عليه .

(٣) مستعذباً : واجداً لها حلاوة .

(٤) يجيف بابه : يغلّق بابه .

(٥) تلقاه : تحاه (قباله) .

(٦) غراماً : غُرمًا

(٧) جنه الليل : ستره .

الحركات ، وسكنت حواس الأتباء^(١) ، خلا عند ذلك بينه^(٢) .
فهاج شجوه^(٣) ، وتصاعدت أنفاسه ، وطال أنينه ، وتنجز الموعود من
مأموله ، وماقد غذاه من فوائده وألطافه ، فظفر عند ذلك ببعض
سؤله ، وقضى بعض أوطاره^(٤) .

وكذلك المستأنس : تذهب عنه الوحشة في المواطن التي يفرع فيها
الناس ، فيستوى عنده العمران والحراب والقفار^(٥) ، والجماعة
والوحدة ، وذلك الذي استولى عليه من قرب الله عز وجل ، وعدوية
ذكره ، ويغلب ماسواه من العوارض الظاهرة والباطنة .
فهذا ظاهر الأنس الذي يمكن أن يذكره ، ومابقى من مقامات
الأنس أكثر وأعز من أن يكون في كتاب ، إلا أن يجرى منه شيء عند
المذاكرة مع أهله .
وبالله التوفيق .

(١) سكنت حواس الأتباء مبالغة في السكون .

(٢) البث : المناجاة المبتوثة بالزفرات .

(٣) الشجوة : الوجد .

(٤) قضى بعض أوطاره : نال بعض بغيته ، ومصداق ذلك قوله تعالى « وتبتل إليه

تبتلا » .

(٥) القفار : الجرداء .